المحاضرة الرابعة (04): أثر المعتزلة في النقد الأدبي

تعريف المعتزلة لغة واصطلاحا:

الاعتزال لغة: مأخوذ من اعتزل الشيء وتعزله بمعنى تنحى عنه، ومنه تعازل القوم بمعنى تنحى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا أي: كنت في موضع عزلة منه، واعتزلت القوم أي فارقتهم، وتنحيت عنهم، ومنه قوله تعالى: وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [الدخان: 21]. أراد إن لم تؤمنوا بي، فلا تكونوا علي ولا معي. وعلى ذلك: فالاعتزال معناه: الانفصال والتنحي، والمعتزلة هم المنفصلون. هذا في اللغة. ومنه قول الأحوص:

يـــا بيـــت عاتكـــة الـــذي أتعـــزل ... حـــذر العـــدى وبـــه الفـــؤاد موكـــل

أما المعتزلة في الاصطلاح: فهو اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية، وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل عن مجلس الحسن البصري.

وقد اندفع المعتزلة إلى البحث في المسائل البلاغية والنقدية لسببين:

1/ لأن البلاغة عنصر هام في الإقناع، والإقناع غاية الجدل الكلامي، ولهذا كان بعض علماء المعتزلة معلمي البلاغة، مثل: السفسطائيين في العهد اليوناني.

2/ إيمان المعتزلة أن الشعر مصدر من مصادر المعرفة ووعاء لها، وذلك لكونه يتيح لدارسيه مجالا من المعارف في الحيوان والنبات وغيرها، فضلا عن ان الشعر يتعلق بميزات تتصل بحاجات النفسالإنسانية، ولذلك فهو حقيق بالدراسة أدبا ونقدا.

من أبرز أعلام المعتزلة بشر بن المعتمر صاحب الصحيفة المشهورة التي أوردها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، وفيها لمحات نقدية مهمة:

أ/ ضرورة تنبيه الأديب إلى الأوقات الملائمة واجتناب أوقات الكدر والاستكراه.

ب/ الملاءمة بين اللفظ والمعنى فاللفظ الكريم يحتاج معنى كريما.

ج/ الملاءمة بين المعنى والمستمعين، فلكل طبقة كلام ولكل حالة مقام.

وينبغي التنبه إلى أن صحيفة بشر بن المعتمر تعكس جزءا كبيرا من الأفكار التي وردت في الصحيفة الهندية، وهي نص مترجم تضمن نصائح للشعراء في ذلك العهد. وإذا كان للحركة الاعتزالية آنذاك تأثير في حركة النقد الأدبي في ق3هـ من خلال تأثر عدد كبير من العلماء بالإسهامات النقدية لأعلام المعتزلة. فقد تحدث ابن قتيبة عن مبادئ صحيفة بشر بن المعتمر والصحيفة الهندية من حديث حول اللفظ والمعنى، ومراعاة نفسية السامعين، وضرورة التنبه للأوقات المناسبة لقول الشعر. وحلل ابن قتيبة هذه المبادئ وناقشها وبسطها.

كما أخذ المبرد مفهوماته عن الاستعارة والتشبيه والإيماء من المدرسة الاعتزالية، ومبادئها البلاغية. وأقبل ابن المعتز على بيان الجاحظ فاستخرج منه صحيفة في البديع، واستعار مصطلحات من المذهب الكلامي.

تأثر النقد بالوقفة ضد الشعوبية، التي نشأت كرد فعل على حركة المد الثقافية الفارسية على الثقافة العربية، لذلك فقد حاز نقد الشعر اهتماما بالغا فيها لأن الشعر في تصور هؤلاء المدافعين عن العرب هو تراث عربي خالص. وليس هناك ما يشبهه عند الأمم الأخرى إلا شيئا عارضا؛ وتمثلت انعكاسات الوقفة ضد الشعوبية في ما يلي:

- إيمان الجاحظ بالصلة بين الشعر والعرق العربي. - الاتجاه إلى القول بالإعجاز في النظم لكي يتميّز القرآن عن كتب الحكمة الفارسية وما شابهها. – تمسك هؤلاء النقاد بالمصطلح البدوي (الفحولة). – التمسك بالطريقة التقليدية في بناء القصيدة العربية.